محاضرة الدولة الفاطمية في المغرب

الأهداف:

-أن يميز المجال الزمني والجغرافي للدولة العبيدية بالمغرب

-أن يحلل الدور الذي لعبته الدعوة الإسماعيلية في بسط النفوذ الفاطمي بالمغرب.

-أن يستشعر معاناة علماء السنة في مواجهة الحكم الإسماعيلي.

-أن يتعرف على فترة الحكم الفاطمي بالمغرب من خلال خلفائه الأربعة.

المقدمة:

استغلت الدعوة الشيعية الإسماعيلية بالمغرب الثورات المختلفة المشارب في المنطقة ومظلومية الرعية في ظل الدويلات المتعاقبة لتنتشر كبديل في المنطقة لحكم الأغالبة والرستميين والأدارسة، ولتتمكن من استقطاب القبائل إليها وضمهم تحت جناحها. في هذه المحاضرة سنتعرف على الدولة العبيدية بالمغرب وكيفية انتشار دعوتها الإسماعيلية وتمددها جغرافيا، وسنتناول مقاومة علماء السنة للحكم والشيعي فيما عرف بثورة المالكية.

الشيعة

الشيعة لغةً هم الأتباع والأعوان. أُخذت من الشياع والمشايعة بمعنى المتابعة والمطاوعة. قال ابن منظور: الشيعة كلُّ قومٍ اجتمعوا على أمر فهم شيعة. وكلّ قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيعة، والجمع شِيَع. وهو اسم علمُ عرِف به تاريخيًا."شيعة علي" أو "أتباع علي". وغالبًا ما يشير مصطلح الشيعة إلى الشيعة الاثنا عشريّة لأنها الفرقة الأكثر عددًا ولكنها تُطلق كذلك على فرق شيعيّة أخرى كالإسماعيلية والزيدية.

1-الإسماعيليون في المغرب

نتناول بادئ ذي بدء الظروف السياسية والاجتماعية التي أدت إلى ظهور وانتشار الدعوة الشيعية في المغرب، والتي يمكن أن نجملها فيما يلي:

أ-مرحلة النشاط الدعوي

- عانى البربر من أهل المغرب في برقة "ليبيا" وأفريقية "تونس" حتى طنجة في المغرب الأقصى من تهميش الدولة العباسية لهم، وفرض الضرائب الباهظة عليهم من قبل بعض الحكام المحليين المعينين من

قبل العباسيين، وعلى رأسهم أسرة الأغالبة في تونس، الأمر الذي سبب غضب القبائل وثورتها عليه، وظهور حركات التمرد في عدة جهات متعددة من البلاد.

– استغل الإسماعيليون وعلى رأسهم أبو عبد الله الشيعي الكوفي هذه البيئة من المظلومية، وتهميش دور البربر السياسي في جسد الدولة العباسية فعمل على بث دعاته الذين نشروا بين الناس أن المهدي الذي سيخلصهم من ظلم العباسيين وولاتهم حي قائم وموجود. يقول المقريزي: "انتشرت حينئذ جنود أبي عبد الله في البلاد، وصار يقول: المهدي يخرج في هذه الأيام، ويملك الأرض، فيا طوبى لمن هاجر إلي، وأطاعني"[1].

– وجود دولة الأدارسة العلويين في المغرب الأقصى وتعاطف أهل المغرب عموما مع آل البيت، من قبل مجيء الإسماعيليين كان قد هيأ الأرض لتقبل وجود دولة شيعية جديدة.

–اعتماد أبي عبد الله الشيعي في نشر دعوته على قبيلة **كتامة** أكثر القبائل البربرية عددا وأصعبها مراسًا، فقد كانت تسكن جبال أوراس الوعرة وجنوب أفريقية في بلاد ممتدة من طرابلس الغرب إلى طنجة. حيث كان لهم دور حاسم في قيام الدولة الفاطمية فيما بعد، وأسهموا في فتوحاتها فكان الخلفاء الفاطميون يعتمدون في أغلب جيوشهم على أفراد قبيلة كتامة، إلى أن أصبحوا فيما بعد ذلك عصبة الحكام الفاطميين وأصحاب دولتهم.

–تزامن نشاط الدعوة الشيعية الإسماعيلية طوال القرن الثالث الهجري/ الثامن الميلادي، مع ضعف العباسيين وسيطرة العسكر على مقاليد الدولة العباسية؛ لذا كانت الدعوة إلى المذهب والأفكار الشيعية والمظلومية التي عانى منها العلويون بمختلف فروعهم على يد الأمويين ثم العباسيين هي التي سبقت مرحلة قيام الدولة الشيعية في كل من فارس والعراق واليمن والمغرب ثم مصر فيما بعد وهو القرن الرابع الهجري الذي أطلق عليه المؤرخون عصر انتصار الشيعة، وقد كان للدعوة الإسماعيلية دور في تأسيس الدول المناهضة للحكم العباسي والسني بعامة.

ب–مرحلة النشاط العسكري

–سيطرة أبي عبد الله داعي دعاة الإسماعيلية في المغرب سياسيا وعسكريا على رقعة جغرافية كبيرة في بلاد المغرب في فترة امتدت ما يقرب من عشر سنوات، انضمت إليه قبائل البربر في تلك المناطق.

–اتخاذه من منطقة **إيكجان** قرب قسنطينة في الجزائر مركزا لنشر دعوته الدينية الإسماعيلية الشيعية، ومركزا عسكريا لضم المناطق المحيطة. جاء في كتابه أخبار بني عُبيد: "لما تمّ لأبي عبد الله ما أَرَادَ

[1] المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج2

قاد الأجناد والأنجاد، واستفتح المدن وملك البِلَاد، وبنى بموضع يعرف **بإيكجان** على مقربة من قسنطينة مدينة وسماها دار الهجرة وسمى أتباعه وأشياعه من كتامة وغيرهم المؤمنِين، وإذا ركب نَادَى مناديه فِي الجيش: يا خيل الله اركبوا".

-تمكن أبو عبيد الله الداعي الشيعي من هزيمة دولة الأغالبة في تونس، وهي الدولة التي كانت تستقل عن الخلافة العباسية لكنها في الوقت ذاته تدين لها بالولاء والسيادة السياسية والدينية بعد حكم استمر مائة واثني عشرة سنة منذ ولى الخليفة هارونُ الرشيد حكم الأغالبة لأفريقية "تونس" لزعيمهم الأول إبراهيم بن الأغلب سنة 184هـ، لتستقر في يد الفاطميين فيما بعد منذ سنة 296هـ.

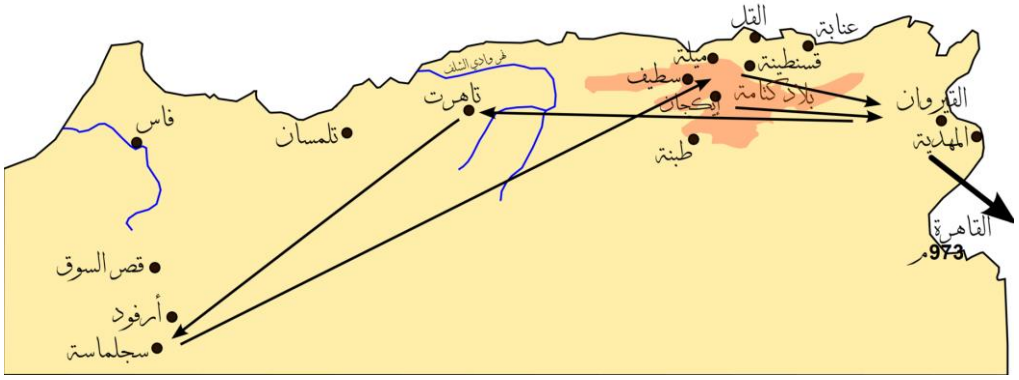

ج-قدوم الخليفة الفاطمي الأول

حين ترسخ الوجود الإسماعيلي وصار له قوة إقليمية رادعة، أرسل أبو عبد الله إلى **عبيد الله المهدي** الذي كان يدعو له، في **سلمية بالشام** مركز الدعوة الإسماعيلية أن يأتيه باعتباره رأس الدعوة وإمامها آنذاك، فانطلق إليه **المهدي**، وبالرغم من القبض عليه من قبل دولة بني مدرار في المغرب الأقصى الذين امتثلوا لأمر العباسيين فإن أبا عبد الله تمكن من إطلاق سراح سيده حين استولى على هذه المناطق.

وبهذا الانتصار تمكن الثوار الإسماعيليون من السيطرة على رقعة جغرافية هائلة شملت معظم بلاد المغرب، وبمجيء عبيد الله المهدي ودخوله مدينة **رقّادة** في إفريقية فقد تم إعلانه رسميًا "**خليفة**" في ربيع الآخر 297هـ/ 910م، ما يعني تهديدًا وجوديًا للدولة العباسية، وهو التهديد الذي أجبر الأمويين القريبين في الأندلس بعد ذلك بسنوات قليلة على إعلان الأمير عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة للمسلمين هنالك.

وقد وضع **عبيد الله المهدي** لدولته الناشئة نظامًا مذهبيًا يشدّ أزر التنظيمات السياسية والإدارية التي اتخذها، فالدولة الفاطمية الوليدة قامت على أساس مذهبي إسماعيلي، فآل البيت أحق الناس بزعامة المسلمين، وفرض سيادتها انطلاقًا من هذا الأساس، وتحقيق المفاهيم الإسماعيلية الشاملة، واستتبع

ذلك رفع شأن الحاكم، فهو خليفة الله في الأرض، وهو في الوقت نفسه إمام المذهب الإسماعيلي، وهو معصومٌ عن الخطأ وِفق المعتقد الشيعي، وهو قائمُ الزمان، وقيامه يرجع إلى مشيئة الله وهو نبي زمانه؛ ليقيم شريعته، ويربط الصلة بينه وبين عباده.

في المقابل شرع المهدي يرسخ من وجوده السياسي والإداري بتقسيم الولايات، وإقامة الدواوين المالية، لكن اللافت والأهم والمتكرر في التاريخ دوما هو التخلص من الأعوان الأقوياء الذين قامت الدولة الجديدة على أكتافهم، ومثلما تخلص العباسيون من أبي مسلم الخرساني القائد المحنك صاحب الانتصارات العسكرية التي مكنتهم من رقاب الأمويين، فقد تخلص عبيد الله المهدي من أبي عبد الله الشيعي الذي أقام له الدولة، وأسس له الشوكة، حيث كان ذراعه الإعلامي والعسكري.

2-ترسيخ الوجود الفاطمي بالمغرب

أ-مواجهة الثورات

واجه المهدي عدة ثورات من فلول النظام الأغلبي القديم في مدينة **القصر**، لكنه تتبعهم قتلا وتشريدًا ولم يُبق منهم أحدًا، وتلا ذلك ثورتان كبيرتان في كل من القيروان وطرابلس، ففي القيروان ثارت المدينة في وجه الطغيان الإسماعيلي على يد الكتاميين، الذين كانوا ينقمون على أهل المدينة باعتبارها مركزًا من مراكز التأثير السني القوي في المغرب الأدنى، ويطمعون في ثروات المدينة التجارية العريقة، فقُتل من كتامة أكثر من ألف رجل. الأمر الذي جعل انتقام المهدي غاشمًا حين أنزل عقوبته بحق المدنيين وكبار فقهاء المالكية في المدينة.

-خاض الفاطميون حروبا كثيرة مع الخوارج بالمغرب، فقد ثار عليهم خارجيٌّ يدعى «أبا زيد» انتشرت ثورته انتشارًا كبيرًا، وتوفيَّ خلال أيام هذه الثورة عبيد الله، فورث عنه حكم دولة الفاطميين ابنه **أبو القاسم مُحَمَّد القائم بأمر الله**، واستمرَّ بمحاربة الخوارج، لكنه توفي سنة 334هـ دون تمكِّنه من هزيمتهم. فخلفه ابنه **المنصور بنصر الله** الذي تمكَّن أخيرًا من القضاء على ثورة أبي يزيد في سنة 336هـ، وأسَّس مدينة **المنصوريَّة** بإفريقية ليجعلها عاصمة الفاطميين. توفي الخليفة المنصور سنة 341هـ، فخلفه ابنه **المعز لدين الله**، رابع الخلفاء الفاطميّين وأحد أهم حُكامَّ الدولة الفاطمية.

وبعد ثورة القيروان ثارت طرابلس الغرب، ثم قبائل زناته، وحتى قبائل كتامة الموالية للفاطميين ثارت هي الأخرى حين تعارضت المصالح، ثم ثارت جزيرة صقلية التي فتحها أسد بن الفرات والتي كانت تدين لدولة الأغالبة في تونس بالولاء ومن ورائها الخليفة العباسي في بغداد ثارت ضد حكم الفاطميين، كل هذه الانتفاضات السنية في غالبها كانت مقاومة للوجود الإسماعيلي الجديد والمعادي للسنة بوضوح.

ب–بناء العاصمة الجديدة

رأى المهدي، شأنه شأن أي زعيم دولة قوي في بقعة جديدة أن يبتعد عن مراكز المقاومة والمعارضة للحكم الفاطمي، وكذلك الابتعاد عن مراكز الولاء للأنظمة القديمة، وأن يشرع فورا في بناء عاصمة جديدة، هذه العاصمة التي بدأ في إنشائها بالفعل، سُميت **بالمهدية** على ساحل البحر المتوسط، واستمر البناء فيها لست سنوات كاملة منذ عام 300 حتى عام 306هـ، يقول ابن خلدون: "مرّ (المهدي) بتونس وقرطاجنة حتى وقف على مكانها جزيرة متصلة بالبر كصورة كف اتصلت بزند، فاختطّ **المهديّة** بها وجعلها دار مُلكه، وأدار بها سورا مُحكما، وجعل لها أبوابا من الحديد وزن كل مصراع مائة قنطار".

–بناء **المنصورية** سنة 341هـ على يد المنصور بنصر الله قرب القيروان بتونس والتي كانت عاصمة للدولة الفاطمية لأكثر من ثلاثين سنة.

–تمكن الفاطميون من هزيمة الإخشيديين ودخول مصر على يد **جوهر الصقليُّ** فأمر ببناء مدينةٍ جديدةٍ ليستقرَّ فيها جنوده، وذلك تجنُّباً لأيّ مشاكل أو توترات قد تنجم عن اختلاط العساكر بأهل البلاد. وبعد أن استقرَّت الأمور في مصر، قرَّر معز الدين نقل عاصمة دولته من **المهديَّة** بإفريقية إلى هذه المدينة الجديدة، وهكذا تأسَّست مدينة **القاهرة المعزِّيَّة** سنة 358 هـ. ودخل **معز الدّين الفاطمي** مصر سنة 362هـ الموافقة لسنة 972م، لتصبح مقرَّ حكم الفاطميين حتى نهاية دولتهم.

ج–السيطرة على المغرب

–بسط العبيديون سيطرتهم على معظم أنحاء المغرب بعد نزاعٍ مع حكَّامه الأدارسة وهزيمتهم، بقيادة الفاطمي **موسى بن أبي العافية** سنة 312هـ. وقد تمرَّد بن أبي عافية على الفاطميّين بعد فتح المغرب، وحوَّل ولاءه إلى عبد الرحمٰن الناصر لدين الله أمير الأندلس الأمويّ، لكن عُبيد الله المهدي أرسل ابنه «أبا القاسم» سنة 315هـ فتمكَّن هذا الأخير من استعادة سيطرة الفاطميّين على المغرب.

3-موقف علماء السنة المغاربة من الفاطميين

جاء الفاطميون الشيعة، فقاطع علماء المالكية حكمهم، ولم يبادروا إلى الدخول في طاعتهم، لأنهم كانوا ينظرون إليهم وكأنهم طغاة مارقون عن الدين، فأراق **عبيد الله الشيعي** دماءهم، وبالغ في القسوة عليهم، فما زادهم ذلك إلا إصرارا على موقفهم، بل إنهم نددوا بالشيعة أكثر، حتى إن أحدهم وهو الفقيه **جبلة بن حمود الصدفي** أفتى بأن جهاد الشيعة أفضل من جهاد الشرك، وهكذا تصدوا لمقاومتهم، وحرضوا الناس على مقاومة التشيع، ودعوهم إلى التمسك بمذهب أهل السنة. وقد كان الفاطميون يفرضون آراء التشيع على الناس بالقوة والقهر، وصدرت منهم مخالفات تصادم الدين مصادمة صريحة، إذ أسقطوا الرجم عن المحصنين في الزنا، وأسقطوا المسح على الخفين، وحللوا المطلقة ثلاثا ... وسبوا أصحاب النبي ﷺ وأزواجه، وزعموا أن الصحابة ارتدوا بعده، وعلقت رؤوس الحمير والكباش على أبواب الحوانيت عليها قراطيس معلقة مكتوب فيها أسماء الصحابة، فاشتد الأمر على أهل السنة، فمن تكلم أو تحرك قُتل ومُثِّلَ به، وذلك في أيام الخليفة الفاطمي الثالث وهو **اسماعيل الملقب بالمنصور** سنة 331هـ. وأباح دعاتهم للناس تحليل المحرمات فأكلوا الخنزير، وشربوا الخمر في رمضان جهارا حتى علم بذلك الخاص والعام.

فكان من الطبيعي أن يقف المالكية ضد الولاة وزمرتهم موقف العداء والمعارضة وينقموا عليهم هذا التصرف، إلا أن موقفهم هذا جر عليهم كثيرا من المحن، ومن أمثالهم: **أبو علي حسن بن خلدون البلوي** زعيم أهل السنة الذي أرسل **المعز لدين الله الفاطمي** طائفة من جنده فقتلوه في مسجده في

شوال سنة 412هـ 1021م، وفعل مثل ذلك مع أبي إسحاق ابراهيم حسن بن يحيى المعافري وأبي القاسم السيوري وأبي عمران الفاسي، كما قتلوا **عروس المؤذن** الرجل الصالح المتعبد، كان يؤذن بمسجد أبي عياش الفقيه صاحب سحنون وكان اسمه منيب، وكان سبب قتله أنه شهد عليه بعض المشارقة أنه لم يقل في أذانه: «حي على خير العمل» فقطع لسانه وقتل بالرماح بعد أن طيف به القيروان ولسانه بين عينيه، ثم قتل[2].

4-نهاية الفاطميين بالمغرب

-قبل أن يرحل المعزّ لدين الله عن إفريقية لينتقل إلى عاصمته الجديدة في مصر، عيَّن **بلكين بن زيري** واليًا عليها مكانه، وكان ذلك في سنة 362هـ الموافقة لسنة 972م. وقد استولى أبناؤه من **بني زيري** على مجمَل شمال أفريقيا فيما بعد، وانقسموا بعد بعض الخلافات الداخلية إلى قسمَين اثنين: «بنو زيري في إفريقية، وبنو حماد في المغرب الأوسط. لكن الزيريّين استقلوا لاحقًا عن الدولة الفاطميَّة، وحوَّلوا ولاءهم عوضًا عنها إلى الخلافة العبَّاسيَّة في المشرق.

-أمَّا بقية الولايات المغربيَّة فقد سقطت من أيديهم كذلك، إذ ما لبثت أن قامت دولة المرابطين في المغرب سنة 1040م، وتخلَّى حُكَّامها عن المذهب الشيعي.

- أعلن الأمير عبد الرحمٰن بن محمد الخلافة الأموية في الأندلس سنة 316هـ، ليُثبت أن دولته ليست أقل من الخلافة العبَّاسيَّة أو الخلافة الفاطميَّة، ومساندة دول قبائل بني يفرن ومغراوة الزناتيَّة في المغرب الأقصى ماديًّا وعسكريًّا لمجابهة قبائل صنهاجة وكتامة الموالية للفاطميين، ولتقف كحاجز أمام التوسع الفاطمي غربًا، بالإضافة إلى الاستيلاء على مرفأ مليلة سنة 314هـ، وسبتة سنة 319هـ، ثم طنجة وهي الموانيء المقابلة لأرض الأندلس، لتكون خط دفاع أوّليّ أمام أيّ مُحاولة عبورٍ للفاطميين.

-دخول الأدارسة حُلفاء الفاطميين في طاعة الخليفة عبد الرحمٰن الناصر لدين الله سنة 332هـ، كان ضربة قاصمة لأطماع الفاطميين في الاستيلاء على تلك المنطقة.

-مع انتقال عاصمة الفاطميين إلى مصر في أواخر القرن الرابع الهجري، خفَّت حدة الاهتمام الفاطمي في التوسع غربًا على حساب دولة الأمويين في الأندلس وحلفائهم.

خاتمة:

نخلص من المحاضرة إلى النتائج الآتية:

---

[2] انظر المزيد في: كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، أبو بكر المالكي. ج2، طبقات الخشني (باب من دارت عليه محنة من علماء القيروان)

-أولها وأهمها **الأيديولوجية الإسماعيلية** التي لعبت على **المظلومية** وتفشي **الفساد** في منطقة المغرب، **وتهميش دور البربر** من قبل الولاة العباسيين، تمامًا مثلما همشوا الموالي "الفرس" في المشرق، فأضحت إيران محضنا مهما لرعاية الإسماعيلية لعدة قرون.

-دور أبي عبد الله الشيعي الداعي الذكي الفطن في تقريب البربر منه، وتكوين جيوش قوية في المغرب الأوسط كانت غاراتها لا تتوقف حتى أسقطت الدولة الأغلبية في تونس، وأحلت محلها الدولة الجديدة.

-تولى الخلافة الفاطمية بالمغرب أربعة خلفاء هم: الهدي عبيد الله، ثم أبو القاسم القائم بأمر الله ثم المنصور بنصر الله ثم المعز لدين الله.

-تعرض علماء السنة في المغرب وعامتهم لفتن ومحن كبيرة سامهم إياها الفاطميون، حيث قتلوا منهم وعذبوا ومثلوا بكل من وقف مدافعا عن الحق وعن السنة.

-انتهى حكم العبيديين بالمغرب شيئا فشيئا بانتقالهم إلى مصر واستيلاء الزيريين والحماديين على مناطق نفوذهم، إضافة إلى صرعهم مع الأمويين في الأندلس وتوسع نفوذ المرابطين.